

نماذج من كتابات حول شبلي الشميل

(وفقاً للتسلسل الزمني)

"أعلن جناب العالم الفاضل الدكتور شبلي شمیل عزمه على جمع كتاباته العلميّة والاجتماعيّة في مجلّدات، وقد شرعَ حَضْرته في طبعِ المجلّد الأوّل مِنْهَا وعُنوانه (فلسة النُشوء والإزْتقاء)، وجعلَ قيمةَ الإِشْراكِ فيه جُنيهاً واحداً وهو سيَظهر في وَقْتٍ قريب. فنَحْتُ قُرَاءَ "الجامعة" على اقتناء هذا الكتاب للاستفادة بعلمٍ بطلٍ من أبطال القلم في الشرق، وجدّد من جلود أدباء هذا الرّمن الذين كثيرون مِنْهم استَفادوا بعلمهم، وهم يَفْخرون بمُعاصرتهم لهم وإن لم تَتَّفِقْ آراءُ بَعْضهم مع جميع آرائهم".

فرح أنطون،

"كتاب الدكتور شمیل" في مجلّة الجامعة، الجزء الأوّل، السنة السابعة، ديسمبر ١٩٠٩، ص ٥٤.

####

إذا عُدَّ كبار المفكرين الذين أنجهم عصر الإحياء والنهضة، كان الدكتور شبلي الشميل طليعةً من أبرز طلائعهم. فتح باباً واسعاً للتفاعل بين الفكر العربيّ المعاصر وآخر التطوّرات التي وصلت إليها المباحث العلميّة والاجتماعيّة في زمنه، فحمل لواء مذهب التطوُّر الداروينيّ، وعرّف به الشرق العربيّ، ودافع عن نظريّة التولّد الذاتي كأصلٍ لنشوء الحياة. وهو، وإن لم يَسَلَم من فلسفة مادّيّة، فَجّة أحياناً، تُبالغ في تبسيط الأسرار الكونيّة، فإنّه عمل على إخراج الفكر العربيّ المعاصر من خَبَطِ لا طائل تحته في سراديب الغيبيّات.

وأكد الدكتور شبلي الشميل على أنّ ناموس التطوُّر يسود المجتمع الإنسانيّ أيضاً، وأنّ التطوُّر الاجتماعيّ سيقضي على نظام حكم الفرد المطلق، وعلى سيطرة الاحتكار والمحتكرين، فينشأ مجتمع أقرب إلى العدالة والحريّة، يسأل فيه الفرد عن الجماعة، والجماعة عن الفرد.

وهو يكتب بلغة بسيطة، عليها طابعٌ من دقّة العلم، ولكن فيها أثراً قوياً من حيويّة الأسلوب الأدبيّ، ومن النزعة الجدليّة العنيفة عند الكُتّاب الدعاة لرأيٍ يوقنون بصحّته، ويتحمّسون لنشره.

رئيف خوري،

"الدكتور شبلي الشميل (١٨٦٠ - ١٩١٧ م، ١٢٧٧ - ١٣٣٦ هـ)"، في نصوص التعريف في الأدب العربيّ، عصر الإحياء والنهضة، ١٨٥٠ - ١٩٥٠، الطبعة الأولى، بيروت، لجنة التّأليف المدرسيّ، ١٩٥٧، ص ٢٠٥.

####

كان بين المتخرجين الأول من المعهد الطبيّ التابع للكلية البروتستانتية السورية، تمّ تابع دراسة الطبّ في باريس قبل أن يستقرّ في مصر، حيث مارس مهنته، وكتب مرارًا وتكرارًا في المُقتطف، ومجالات أخرى من هذا النوع. وقد اهتمّ أيضًا بالشؤون العامّة، ولخصّ في كُتيبٍ موجه إلى عبد الحميد في ١٨٩٦ بعنوان "شكوى وأمل" نظرته إلى ما كانت تفتقر إليه السلطنة العثمانية من علم وعدل وحرية.

كان الشميل يعتقد أنّ أعظم هذه الأمور شأنًا، لا بل أساسها جميعًا، إنّما هو العلم. [...] وكان العلم يعني عند الشميل النظام الميتافيزيقي الذي بناه هكسلي وسبنسر في إنكلترا، وهاكل وبوختر في ألمانيا، على فرضيات دارون الحذرة. وكان مؤلفه الرئيسيّ ترجمة شرح بوختر لأفكار دارون، مع ملاحظات وإضافات من عنده. وكان أساس ذلك النظام فكرة وحدة الكائنات. فجميع الأشياء تتكوّن من المادّة بحركة عفوية وُجدت منذ الأزل، وستبقى إلى الأبد. والأشكال المتكوّنة، أي المعادن والنبات والحيوان والإنسان، تكون في كلّ مرحلة أكثر تميّزًا بعضها عن بعض، وأكثر تعقّدًا منها في المرحلة السابقة. وكلّ مرحلة تنبثق من المرحلة التي سبقتها بدون انفصال، [...] إنّ هذه الرؤيا لتسلسل الكائنات، ولأساس كلّ الأشياء ومصدرها، وللإنسان كغايتها الأخيرة، قد هزّت في الشميل حسّ الجمال والجلال، كما هزّت حسّ أبناء جيله في أوروبا وأمريكا. فهو يتساءل قائلًا: هل هناك ما هو أجهج وأنفع من معركة تحوّل المادّة وقواها، والعلم بأنّ جميع الأشياء بالحقيقة شيء واحد؟ ولم يكن من قبيل الصدفة أنّه أطلق على وحدة الطبيعة التعبير المستعمل في علم الكلام الإسلاميّ للدلالة على وحدة الله: التوحيد.

يُعلن الشميل عقيدته بحرارة إيمان المهتدي والثائر معًا. ولا عجب، فقد كان لا يزال لتلك النظرية، يوم تزجّم بوختر في العقد الثامن [من القرن التاسع عشر]، وقع الصاعقة.

ألبرت حوراني،

"طلائع العلمانية (الشميل - فرح أنطون)" في الفكر العربيّ في عصر النهضة، ١٧٩٨-١٩٣٩، ترجمة إلى العربية كريم عزقول، الطبعة الثالثة، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧٧، ص ٢٩٧-٢٩٨.

###

والشميل ابن بيت علم، أخواه ملحم وأمين معلّمان، ولهما تأليف في الفلسفة، وأبوهم من أدباء عصره. وفي سنة ١٨٧١ ترك شبلي المدرسة إذ صار طبيعيًا جسمانيًا، ثمّ عالمًا صريحًا، وفيلسوفًا جريئًا لا يجابي أحدًا. كان حادّ الذهن، سريع التصوّر، نابغة في التعليل، ألمعيًا في اكتشاف الحقائق. وكان أشهر الاطباء في التشخيص الطبيّ فكأنما يُوحى إليه. وبلغت منه الفراسة أنّه علّل حوادث كثيرة بالاستهواء الذاتيّ قبل شيوع هذا العلم في أوروبا.

وهو، فوق ذلك، ذو ذاكرة ماضية، وقوة استحضار فائقة. أنيس المحضّر، حسن المحاضرة، فكّه الحديث، طلق الحيّا، بشوش، مخلص، منصف، ذو شجاعة أدبية تفوق الحدّ، متغطّس على الظالمين، متواضع للضعفاء البائسين، كريم لم يستفد من علمه، ولو حرص على ماله حرصه على مقالاته لكان من الأغنيا، ولعاش ميسورًا موفورًا. كان واسع الرواية، قويّ الحجّة، متحمّسًا لمعتقده.

[...] طبعت [كتبه] سنة ١٨٨٤، ثمّ أعيد طبعها في سنة ١٩٠٩ على حساب الأجاويد والأنصار، وأولهم الأب بولس الكفوريّ والدكتور أيّوب ثابت وغيرهما من أحرار رجال الفكر والقلم، ثمّ أصحاب الأكياس الوارمة.

[...] فالشميل كاتب جديّ، مطبوع على الأسلوب الخطابيّ، ينمّ أسلوبه على لبنانيّته. تقرأ مجموعته، من أولها الى آخرها، فلا تحسّ أدنى أثر للهجة المصريّة، بل بالعكس فإنّك ترى لوئاً صارخاً من الأسلوب اللبنانيّ، وإليك مثلاً هذا التعبير: "كم أنت متمسك بما نشأت عليه؟ فأنا مثلك وأكثر". ومثل هذه العبارة كثير في مقالاته.

والشميل عاش وله في كلّ عرس قرص. يكتب باللغة الفرنسيّة كما يكتب بالعربيّة. لم يدع مسألة سياسيّة أو اجتماعيّة إلا ومدّ إليها مبضعه. عالج جميع قضايا عصره الاجتماعيّة، ورمى جميع الأهداف بأسلوب علميّ منطقيّ. ندّد بتنميق الكلام، ثمّ تأنّق وسجّع، فبحث الحقائق العلميّة متدرّجاً بالخيال وسحر البيان.

أما فلسفة الشميل فمعرّبة، نحاً نحو أبي العلاء في تفكيره، وحسبك منه "رسالة المعاطس" برهاناً. والشميل وجوديّ بكلّ ما في هذه الكلمة من معنى وقوّة.

مارون عبّود،

"شبلي الشميل" في رؤاد النهضة الحديثة، طبعة جديدة، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٧، ص ٢٤٧ - ٢٥٠.

###

زعيم فكرة التطور والنشوء والارتقاء في عالم الضادّ، وأحد رجال الفكر الحرّ والثورة على الجمود والتقليد، والداعية إلى التحرّر في الشرق العربيّ: طيب، وفيلسوف اجتماعيّ عمرايّ، وكاتب جديّ مطبوع على الأسلوب الخطابيّ، وشاعر أديب، قضى في خدمة العلم والتعلّم خمساً وأربعين سنة، يكتب ويؤلّف وينظم في مواضيع شتى من علم وسياسة واجتماع. [...]

نشأ في بيت علم اشتهر بمنّ أنجب من ذوي الفضل في خدمة العلم والأدب والصحافة والقضاء. فكان الشميليون: من أبيه إبراهيم، إلى شقيقه ملحم وأمين، إلى أبناء عمّه قيصر ورشيد، كالبستانيّين، مناظرهم في خدمة اللغة والأدب، وكالبازيّين وآل تقلا وهم أيضاً من كفرشما، وكلّهم من خير الأسر اللبنانيّة التي خدمت لغة الضادّ والأدب العربيّ والصحافة أنفع الخدمات.

قلمه صريح البيان، بسيط الأسلوب، رشيق التعبير في كلّ ما ألّف أو ترجم، [...]. خصّ بذاكرة شديدة الحفظ، وقوّة استحضر غريبة. واسع الرواية، قويّ الحجّة. كان من الكتاب المعدودين باللغة الفرنسيّة كما كان بالعربيّة. كثر منتقدوه ومعارضوه وخصومه، وهم من أشهر حملة الأقلام في مصر والبلاد العربيّة، فصمّد لهم يقارعهم الحجّة بقوة بيان، وبلاغة أسلوب، في كلّ من نثره وشعره.

[...] هبط مصر وهو في الخامسة والعشرين، رسولاً من رسل العلم والعرفان، [...] وفيها سطع نجمة في عالم الفكر والأدب، وتبوّأ مقاماً رفيعاً في المجتمع والطبّ والصحافة، حتّى صار من أعلام النهضة الفكرية في الشرق، ومن أظهر الباحثين وأجرئهم على تناول الشؤون الاجتماعيّة والأدبيّة والفلسفيّة. فكان في طليعة الذين علّموا الشباب في الشرق، التفكير العلميّ الحرّ.

يوسف أسعد داغر،

"شبلبي الشميل (الدكتور)، ١٨٥٣ - ١٩١٧" في مصادر الدراسة الأدبية، الجزء الثاني، الفكر العربي الحديث في سيرة أعلامه، الراحلون (١٨٠٠ - ١٩٥٥)، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات الأدبية، ٧، ١٩٨٣، ص ٤٨٤ - ٤٨٥.

####

ظهر كتاب الدكتور شمّيل "شرح بجنر على مذهب دارون" مطبوعاً باللغة العربية سنة ١٨٨٤، ولم يكن قد مضى على ظهور كتاب "أصل الأنواع" في أوروبا غير خمس وعشرين سنة. وكانت معركة التطور على أشدها في دوائر أوروبا العلمية، فنقل شمّيل المعركة إلى الشرق، يؤيده رجل المقتطف الأول الدكتور صروف.

ولم يظهر في اللغة العربية كتاب يعالج النشوء من منبعه الأصيل إلا بعد أربع وثلاثين سنة، عندما نُشرت الطبعة الأولى من كتاب "أصل الأنواع" سنة ١٩١٨. [...]

لو أنّ الدكتور شمّيل قد اقتصر في نقل مذهب التطور على المبادئ التي اثبتها دارون في كتابه "أصل الأنواع" لما ثارت تلك اللجاجة حول المذهب، ولكنّه لم يكتف بذلك، بل عمد إلى الكلام في أمرين كانا السبب في تلك الثورة وهما: إثبات العلاقة بين مذهب التطور الأحيائي والمذهب المادي، وأصل الإنسان.

[...] لقد أثار العاصفة، وانتظر، وهذا من توفيقه وحسن طالعه، فإنّ كثيرين ممّن يثيرون العواصف الفكرية قلّما يخلصون منها إلا صرعى أو في التراب.

إسماعيل مظهر،

"شبلبي شمّيل وفكرة التطور في الشرق العربي" في أعلام النهضة الحديثة، الحلقة الأولى، مُستتلة من مجلّة الكتاب، الطبعة الأولى، بيروت، دار الحمراء للطباعة والنشر، ١٩٩٠، ص ٨٦ - ٨٧، ٩٢.

####

لا يخفى ما لحضرة العالم النطاسي الدكتور شبلبي شمّيل من الشهرة الطائفة في التطبيب الباطني والجراحة. ويشرنا أن نبشر آل الغورية، وما جاورها، أنّه أنشأ فيها محلاً للعيادة يُطبّب فيه كلّ الأمراض، باطنية أو جراحية أو أمراض العيون. وقد أعدّ فيه محلاً مستوفياً مع المساعدين اللازمين للعمليات الجراحية، وأحقّ به إحدى الحكيمات لمعالجة أمراض النساء. وقد عيّنت أوقات العيادة كلّ يوم من الساعة التاسعة إلى الحادية عشرة قبل الظهر، ومن الساعة الرابعة إلى الخامسة بعد الظهر على الحساب الإفرنجي. والفقراء يُعالجون مجاناً.

فنشي على حضرة الدكتور، ونرجو أن ينتفع المرضى بعلمه وعمله.

الدكتور أسعد رزوق،

حوادث وخواطر، مذكرات الدكتور شبلي شمّيل (جمع وإعداد وتحقيق)، طبعة أولى، بيروت، در الحمراء للطباعة والنشر، ١٩٩١، ص ١٥.

###

طبيب بحاث، كان ينحو منحى الفلاسفة في عيشته وآرائه [...].

وكان من أكبر مزاياه التنديد بالظالمين، والمجاهرة بما يعتقدُه حقاً، ولو خالف فيه جميع الناس؛ قلمه ولسانه في ذلك سيّان. وله نظّم، وليس بشاعر. وكان يجيد الفرنسيّة، ويُعدُّ من الكتاب بها.

خير الدين الزركلي،

"الدكتور شمّيل (١٢٦٩ - ١٢٢٥ هـ = ١٨٥٣ - ١٩١٧م)" في الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء في العرب والمُتعرّبين والمُستشرقين، الطبعة العاشرة، المجلد الخامس، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩٢، ص ١٥٥.

###

الدكتور شبلي الشمّيل طبيب ومفكّر حرّ تائر على الجمود والتقليد، وكاتب جدليّ وخطيب وشاعر، قضى في خدمة العلم والتعليم قرابة ٤٥ سنة، وتبّى نظريّة النشوء والارتقاء لمُطلقها داروين، مع نظريّة التولّد الذاتي، ودافع عن مواقفه بجرأة، وجاهر بالماديّة، فقام كثيرون يناهضون آراءه بشدّة.

الأب كميل اليسوعيّ حشيمه،

"الشمّيل شبلي (١٨٥٣ - ١٩١٧)، روميّ ملكيّ كاثوليكيّ"، في المؤلّفون العرب المسيحيّون من قبل الإسلام إلى آخر القرن العشرين، طبعة أولى، الجزء السادس، بيروت، دار المشرق، ٢٠١٣، ص ٥١-٥٢.

###

لا أبالغ إذا أسميتُ الشمّيل ذلك المجهول. إنّه مجهول حقّاً في بني قومه من بني قومه. ولهذا الجهل عندنا سببٌ يعود إلى حالتنا الفكرية. وهو أنّ وجداننا لم يتعقّلن، بعد، وعقلنا، من ثمّ، لم يتوجّدن. يعني أنّ استحرارنا الفكريّ ما زال في رومانسيّة القلب. أمّا كلاسيّة العقل فإنّنا لا نعرف بناءها حتّى الآن. نحن في أنوثة الأدب أكثر ممّا نحن في رجولة الفلسفة. والشمّيل ليس أديباً إلّا في بعض مبناه. لقد تفلسف. والفلسفة بضاعةٌ غيرُ مطلوبة تحت سمائنا. لذا غيّب النسيان. فاندثرت ملاحه. أو كادت. على أنّه واحدٌ من جهابذة

الفلسفة اللبنانيّة الحديثة. وأثمتها. سطّح الأغوار فبانَتْ، وغوّر السطوح فغامَتْ. من هنا ضخامة النتاج الذي تركه لنا. إلاّ أنّه ذلك المجهول على كلّ حال. فلا أدبٌ عندنا يسترسل في الحديث عنه، لأنّ أدبنا فوّاشٌ يُراهق. ولا فلسفةٌ عندنا تؤرّخه بسعةٍ ذُكر، لأنّ فلسفتنا ما برحت جنبياً يتكوّن. لكأنّ الشميّل سابقٌ لزمانه بعمر بليغ عرف كيف يطارد فيه الحقائق القاسية. ويخلخل باهما المرصود فيُشرّع. لأجل هذا كلّ وجب علينا أن نعيد تثبيت الشميّل بعد أن درّست شواهده. وغابت عن الكثيرين مشاهدته. [...]

والآن، ماذا عن فلسفة شبلي الشميّل؟ من الغرابة بمكان أن أتحدّث عن فلسفة لشبلي الشميّل، هو الذي قال: "لا أعلم من الفلسفة إلاّ اسمها"^١. والذي قال أيضاً: "الفلسفة، وإن كان لا يزال لها بعضٌ معنيّ اليوم، فإنّها ستصبح مبتدلةً في المستقبل"^٢.

أجل، من الغرابة بمكان أن أتحدّث عن فلسفة لشبلي الشميّل، هو الذي قال ذلك في جريدة مصر الفتاة سنة ١٨٧٩، وفي آخر دياحة كتابه فلسفة النشوء والارتقاء، الصادر سنة ١٩١٠.

عندي أنّ في هذا النفي كلّ الإثبات أنّه فيلسوف. فقد علّل نفيه بنظرة شاملة في الكون. ومثّل هذه النظرة، إذا دُوّنت بصيغة تدليليّة محلّلة، تجعل من صاحبها، بلا ريب، فيلسوفاً من الفلاسفة. تلك النظرة متوافرة لدى الشميّل. فقد حاول أن يستشرف، عن طريقها، الحقيقة المنشودة في كلّ مكان وزمان. وكغيره ممن سبقوه، لم يبتغ حقيقةً مكسّرة، بل تلك التي ظنّها الحقيقة الإنسانيّة عبر التاريخ. ثمّ حرّرها بشكلٍ برهانيّ من داخل رؤيا شاملة متى حصلت عند المفكّر، أكانت مدحاً للفلسفة أم دقاً بها، اعتُبرَ ذا مذهب فلسفيّ. وعليه، شبلي الشميّل فيلسوف مئة بالمئة. حاش كلّ المواجيد في صمّة واحدة من حدس الوجدان الرائي، وهي ما يمكن تلخيصه بالنظرة النشوئيّة الارتقائيّة ذات السخنة الطبيعيّة. فلقد انطلق من الطبيعة. أي من الجماد أوّلاً. وانتهى بالإنسان عبر النبات والحيوان.

كمال يوسف الحاج،

"شبلي الشميّل (١٨٥٠-١٩١٧)" في المؤلفات الكاملة، المجلّد الحادي عشر، في الفلسفة اللبنانيّة (٢)، الطبعة الأولى، جونه، بيت الفكر - أسبسيّة كمال يوسف الحاج، ٢٠١٤، ١١/ موجز/ ١٠٧٩، ١٠٩٠-١٠٩٢ (ص ٥٠١، ٥٠٦-٥٠٧).

###

لم يكن شبلي الشميّل مجرد مفكّر نظريّ، وإمّا شارك فعلاً في [تقدّم] المجتمع وتطوّره بطريقة إيجابيّة. وتبنيّ المبادئ والأسس العامّة لفلسفة النشوء والارتقاء، ونظريّة التطوّر ل"داروين". [...] حارب الجهل، والتخلّف، والتعصّب، بأشكاله كافّة. ووقف ضدّ الظلم، والقهر، والاستبداد. ونحاز إلى الحداثة، والمعاصرة، والعلمانيّة، وشارك في معركة تحرّر الإنسان، من أحكام المجتمع وتقاليد. ودعا إلى تحرير العقول من ضيق الأفق العقليّ، وإنشاء مختبرات للفكر التقدميّ، واحترام حرّيّة المعتقد، والفكر، والتعبير. وحلم بمستقبل تضيئه أفكار التقدّم، والحضارة، والمدنيّة، والنقد العقلانيّ، والتسامح [...] الدينيّ، والسياسيّ، والاجتماعيّ.

^١ شبلي الشميّل، مجموعة الدكتور شبلي الشميّل، الجزء الثاني، المقالة الأولى (مطبعة المتقطّف، مصر، ١٩١٠)، ص ٣. وتدرج المقالة الصادرة في جريدة مصر الفتاة ضمن هذا الجزء.

^٢ شبلي الشميّل، مجموعة الدكتور شبلي الشميّل، الجزء الأول، الدياحة (مطبعة المتقطّف، مصر، ١٩١٠)، صفحة ٥. ويندرج كتاب فلسفة النشوء والارتقاء ضمن هذا الجزء.

كان زواج بين دوره القيميّ، والثقافيّ، ومساهماته الفكرية، وكفاحه السياسيّ. وكان منفتحاً على العلم، وسعى إلى تغيير الواقع الاجتماعيّ العربيّ. ورأى في المدينة الغربية، بمفاهيمها ومنجزاتها العلمية، المثال الذي يجب أن يُحتذى إذا ما أرادت المجتمعات العربية النهوض، وتحقيق التقدّم العصريّ، والحضاريّ، والتخلّص من حالة التخلف، والتآكل، والانكماش، والتقهقر التي تتناهما. وآمن بمقولة "الدين لله والوطن للجميع"، وطالَب بتحقيق مصالحة بين التيارات الفكرية، والمذهبية، والإيديولوجية المختلفة، وفق مبادئ العقل، والفلسفة، والعلوم.

هو واحد من طلائع المفكرين التنويريين، ورجالات النهضة الثقافية، والفكرية، والعلمية العربية، الذين ساهموا في المعركة النضالية من أجل إرساء مجتمع الحرّيّة، والديمقراطيّة، والمساواة.

إيمان محمّد شمساني،

"الخاتمة" في الفكر السياسيّ والدينيّ عند شبلي الشميل، رسالة أعدت لنيل شهادة الماستر في الفلسفة، إشراف د. هادي فضل الله، بيروت، الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العمادة، قسم الفلسفة، ٢٠١٤، ص ٧٣.

###

كاتب هذه الكلمة واحدٌ من الألوفا الذين اتّصلت بأنفسهم شعلّة من نفس الشميل، فأضرمّتها غيراً على الحقّ، وشوقاً إلى الحرّيّة. [...] من محاسن شبلي شمّيل أنّه ثبّت في مبادئه حتى آخر أيّامه. فقد كان أوّل من نشر مبدأ النشوء والإرتقاء في الأمتة العربيّة، وظلّ متمسكاً به حرفاً وروحاً. بيّد أنّ أشياعه الأولين في أوروبا تدرّجوا منه إلى مبادئ أخرى^١. ومهما كان من أمر فيلسوفنا في هذا الصدد، فإنّ إخلاصه باهر، وتجردّه ظاهر. أكافراً عُذّ أم مؤمناً، وإنّ ما ندعوه كفرةً أو زندقةً أمسى زناً عند الأدباء يتحلّون به في شبابهم وينبذونه غالباً إذ يتجاوزون سنّ الأربعين، وعُذّرهم في ذلك أنّ الخبرة والزمان يعلّمان المرء ما لا تعلّمه الكتب.

وعندي أنّ النبوغ الحقيقيّ هو ما تدوم فيه حماسة الشباب وتشويقات الشباب... وفيلسوفنا الشميل ظلّ شاباً في اعتقاده، شاباً في مبادئه، شاباً حتى آخر أيّامه في حماسته [...].

لو طلب هذا النابغة السوريّ السيادة لجاءته صاغرة. لو طمع بأشياء الدنيا لنال منها كثيرها، وأصبح ثرياً جباراً في قومه. ولكنّ سيادة العلم فوق كلّ سيادة. وشبلي الشميل ألبس هذه السيادة لباس العفة والنزاهة. ولم يُسء إليها يوماً بشيء من المجاملة أو المداراة. خذ كلمة من كلماته في شيخوخته تظنّها كُتبت في شبابه. وفي حملاته على الظلم والظالمين، كما في مباحثه الاجتماعية والعلمية، كان التجردّ والإخلاص من عواملِ الحية أبداً القويّة.

^١ إشارة إلى مؤلّفات هربرت سبنسر Herbert Spencer التي تشير إلى أنّ علم النفس وعلم الاجتماع خاضعان أيضاً لنظرية النشوء والإرتقاء، وكذلك مؤلّفات تومس هكسلي Thomas Huxley التي يعول فيها على النزعة الأخلاقية ضمن نظرية النشوء والارتقاء.

أجل، إنّ من أجهل ما فيه استهتاره في سبيل الحقّ والحقيقة. تمثّنى في الأرض سامد الرأس عاليّ الهمة، أيّ النفس، طاهر الذليل، صلب العود، مضطّرم الفؤاد، بعيد النظر.

رفع لواء التمرد على طغاة الزمان، وأرباب الضلال والبهتان، مذ دخل ميدان الفكر والعلم، ولم يخفضه يوماً في حياته. ولواؤه لواؤنا. حمله وحده بالأمس وستحمله الأمة، أمّتنا غداً. إنّ هذا السورّي الكبير سئم ما في الأمم الشريّة من جهلٍ وخمول، وجمودٍ وسبات. فصرخ صرخة مستنهضٍ دوت في العالم العربيّ قاطبة. وسيردد صداها كلُّ أديب حرّ. وماذا بهم إذا كفّروه وهو من مصايح الأجيال المقبلة؟

[...] إنّ من نابغي الشرق من يثّ روحه عملاً وفكراً أكثر منه خطأً ونشراً. ومع أنّ تاليف الشميل، وحدها، كافية لأن تجعل له مقاماً سامياً عزيزاً في الأمة العربيّة، ففي حياته الفرديّة من المآثر ما يماثلها إن لم نقل يفوقها فائدة وفضلاً. فقد كانت له سيادة على العقول غيرُ السيادة التي تُولدها التاليف.

وكانت له منزلة في القلوب غيرُ التي يحرزها النبوغ. شبلي شميل¹ عرس طاهر عرسه الله في الناشئة العربيّة الجديدة، وسينمو بعد موته فوق نموّه في حياته.

أمين الرّيحاني،

" شبلي الشميل " في المؤلفات العربيّة الكاملة، المجلّد الثاني، وجوه شريّة غربيّة، الطبعة الأولى، بيروت، مكتبة لبنان، ناشرون، ٢٠١٦، ص ١١٥٨ - ١١٥٩ (م ع ك / وجوه شريّة غربيّة / " شبلي الشميل " / مج ٢ / م ر ٨١ - ٨٥).

####

¹ راجع رسالتي شبلي الشميل إلى الرّيحاني بالتاريخين الآتين: ١٢ آذار ١٩١٠، و٢٤ آذار ١٩١٠، في كتاب الرّيحاني ومعاصره.